معنى الحياة في القرآن الكريم

أ.د.أحمد رحماني
كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية
جامعة باتنة- الجزائر

الحياة والموت ثنائية من أكثر الثنائيات الضدية تكرارا في القرآن الكريم، وذلك لأهميتهما في عقيدة المسلم وشريعة الله لعباده ، وليس أدل على ذلك من أن الله عز وجل قد أوجدهما أساسا لابتلاء الإنسان واختباره ، فقال: { تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا}.(الملك 1-2)

فهذه الثنائية الضدية من الاهمية بمكان مما يجعلها جديرة بأن تدرس دراسة معمقة تستجلي مغزاها وتستكشف معناها لتضع لها تصورا واضح المعالم ، يجمع كل معانيها الحقيقية والمجازية ، ويحصر دلالاتها حصرا علميا يجعل الوعي الإنساني بحدودها أدق ، وفهمه لأقطارها وتفرعاتها وأهدافها وتنوعاتها أوضح وأبين.

وقد وردت كلمة "الحياة " في القرآن بمشتقاتها المختلفة مائة وأربعة وثمانون مرة (184 مرة) هذا فضلا عن ورود اسم " يحيى" للدلالة على مولود له حال خاصة سنعود إليها من بعد.

كما وردت كلمة " الموت" في القرآن بصيغ مختلفة مائة وخمس وستون مرة (165 مرة) ونحن في هذا الموضوع لن نعرض للثنائية من حيث هي ثنائية إلا بالقدر الذي يبين طرفيها، الحياة والموت، أما التركيز الأساسي فيكون على معنى الحياة ودلالاتها العميقة.

وللتحكم في دلالة الكلمتين لا بد من بحثهما قبل كل شيء على المستوى المعجمي ، لأن معرفة المعنى الأساسي للكلمة يفيد كثيرا في تحليلها على مستوى المفهوم وعلى المستويات المختلفة لاستخدامها في النص القرآني للتعبير عن غرض من الأغراض حقيقة أم مجازا.

1- المستوى اللغوي :

حيي يحيى ضد مات، ويقال فيه أيضا حيَ بالإدغام ، وحياه بمعنى قال له حياك الله أي أبقاك وأطال عمرك ، وحايا الصبي محاياة بمعنى غذاه ، وأحيى النار أشعلها ونفخ فيها حتى تحيا وأحيى الأرض أخصبها واستحياه

تركه حيا، والحي نقيض الميت والنسبة إليه حيوي، والحياء الخصب والمطر يقال له الحي لإحيائه الأرض والناس والمحيا موضع الحياة والإستحياء الحشمة والخجل ، وحي بمعنى أقبل.

وميت :بمعنى فارقته الروح وخرجت من جسده ، وماتت الريح سكنت ومات الثوب بلي ، ومات المكان خلا من العمران ، وأمات نفسه قهرها ، وتماوت بمعنى تظاهر بالموت، واستمات طلب الموت لنفسه، والموت زوال الحياة عمن كانت فيه ، والموتان البلادة ، والميتة : الحيوان الذي مات موتة غير شرعية.

2- معاني ودلالات كلمة " الحياة " في القرآن الكريم : لقد استخدمت الكلمة بمعان مختلفة ، لتدل على معنى الوجود في مقابل العدم ، ولتدل على الفهم المادي للموجود ، كما استخدمت لتدل على الاستحياء بمعنى الذل والهوان ، والبقاء بمعنى الخلود ، والحياة الطاهرة الشريفة لاتصالها بالمبادئ والقيم ، واستخدمت موصوفة لتدل إما على سفالتها وإما على زمانها ، كما صيغت بصيغ مختلفة لتدل على الإطلاق أو الحقارة ، أو الحياة المتطورة ذات البعد الحضاري ، أو الحياة المتخلفة ذات البعد الحيواني البدائي ، أو الحياة الحسية ذات البعد المدني المادي الخالي من القيم الروحية والخلقية.

ولأنها كانت ترد بهذه المعاني المختلفة نجد أنفسنا مضطرين لمعالجتها عنصرا عنصرا حتى نصل في النهاية إلى الصورة المجملة لمعانيها الدقيقة

أ-مفهوم الحياة الدنيا :

يطلق هذا المفهوم في القرآن للدلالة على نمط من الحياة التي يعيشها الإنسان في مرحلة محددة ، هي مرحلة ما بين الميلاد والموت ، ونظرا لكونها مرحلة سريعة الزوال فقد تسمى "الفانية" ولكونها قليلة الجدوى في ميزان القرآن سميت "الدنيا".

قال تعالى ":{ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون}[1] .

[1] - يونس 42

فالآية تبين عن طريق التشبيه -وهو تصوير حسي للمعاني لغرض البيان والإيضاح _أن الحياة الدنيا في فنائها وزوالها وقلة خطرها والملاذ بها كماء [2] أعطى النبات حياة وجمالا ثم جاء تلف وموت مفاجيء فزالت وامحت كان لم تكن من قبل حية.

وهذا النوع من التشبيه يتكرر في قوله تعالى :{ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا}[3] .

والهدف من كل ذلك بيان القيمة الحقيقة للحياة الدنيا بالنسبة للحياة الآخرة، إذ أن هذه مهما تكن مغرية ببهرجها وجمالها وزينتها فإنها فانية ، وفي فنائها تكمن قيمتها الحقيقية كمجال زمني يعيش فيه الإنسان.

وإذا كانت هذه هي قيمتها فهي إذن حياة سفلى ودنيا ودار غرور تماما كما قال عنها محمد عبده : " الحياة الدنيا هي السفلى أو القربى . والمراد منها حياتنا هذه أي معيشتنا الحاضرة التى نتمتع فيها باللذات الحسية كالأكل والشرب أو المعنوية كالجاه والمنصب والسيادة . هذه الحياة هي أقرب الحياتين وأدناهما وأحطهما" وهي على كل حال متاع الغرور ، لأن صاحبها دائما مغرور مخدوع بها، تشغله حين يجلب لذاتها ودفع آلامها فهو يتعب لما لا يستحق التعب ويشقى لتوهم السعادة ويتعب نقدا ليستريح نسيئة" والعبارة : "وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور (آل عمران 186) جاءت بصيغة الحصر فهي تشمل حياة الأبرار الذين يصرفون أعمالهم في نفع الناس حبا في الخير وتقربا إلى الله عز وجل من حيث هم متمتعون فيها إما من حيث أن لذتهم فيما هم فيه قهرية وإما على معنى أنها لا بقاء لها أو يقال إن ما كان من عمل الخير والطاعة ليس من متاع الدنيا والحصر بحسب ما عليه الغالب"[4] .

إن الحياة التي هي صفتها التي وصفها بها خالقها ، وجعلها (دنيا)في مقابل حياة أفضل هي الحياة(العليا) وهي الحياة التي تستحق أن يجتهد الإنسان من أجلها ، مع الأسف هي الحياة التي تغري ببهرجها وزينتها وقربها وسفالتها كثيرا من الخلق فإذا هم يبيعون الحياة العليا ويشترون الحياة الدنيا متباهين: {أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف

---

[2] – القرطبي : الجامع لأحكام القرآن 327/8.

[3] – سورة الكهف : 45

[4] – تفسير المنار : 4 /272.

عنهم العذاب ولا هم ينصرون}[5] ، ويكونون لو علموا قد عرضوا أنفسهم للعذاب المهين وخسروا الناصر الحق ، ذلك لأنهم بابتعادهم عن حياة القيم والمبادئ والتشريعات السماوية التي هي أصلح لنظام البشرية كلها يكونون قد عرضوا حياتهم لخطر التشريعات الوضعية التي مهما يعتز بها واضعوها فإنها قاصرة لأن تنظم حياة الناس تنظيما يسعدهم في أمورهم المادية والروحية والخلقية.

والمراد بشراء الحياة الدنيا بالآخرة ، الاهتمام بعناصر اللذات الحسية وإهمال عناصر اللذات الروحية والعقلية من طاعات وعبادات وطلب علم وما إلى ذلك ، يقول رشيد رضا : " الحياة في الخلق قسمان : حسية ومعنوية فالأولى الحياة النباتية والحياة الحيوانية ،والثانية الحية الروحية ولكل منهما صفات لازمة لها أعلاها في الحياة الثانية حياة الإنسان التي من خواصها العلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام وغير ذلك مما يفقد بالموت ، والثانية الحياة العقلية والروحية الدينية"[6] .

وحينما تباع الحياة بأبخس الأثمان الحسية تفقد قيمتها في الميزان القرآني وتصبح لعبا ولهوا لا طائل من ورائه ، لأنها تصبح حياة الأراذل والاسافل الذين هم قاصروا النظر محدودوا الأفق ، يقول المولى عز وجل :{ وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ، وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون}[7]

هكذا وبصيغة الحصر التي تفيد ضبط الدلالة ضبطا محكما بحيث لا يدع مجالا للشك أو التردد في تقييم الحياة الدنيا بالنسبة لقيمة الحياة الآخرة التي تنال بالتقوى بكل ما تحمله كلمة التقوى من معنى سنوضحه في موضع آخر إن شاء الله . أقول : هكذا يتعين المعنى الحقيقي للحياة في الميزان القرآني ، فإذا هي لعب ولهو إذا خلت من العمل للآخرة .

والسبب في ذلك هو أن العمل الدنيوي يكتسب قيمته في الميزان القرآني من ملابسته بالعقيدة ، فإذا كان خلوا من الإيمان كان عملا دنيويا لا تتعدى قيمته اللعب واللهو ، إذ هما نشاط لا ربح من ورائه.

---

[5] - البقرة : 87

[6] - تفسير المنار 1 /73

[7] - سورة الأنعام : 32

ومن هنا كان: { الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الضمآن ماءا حتى إذا جاءه لم يجده شيئا} [8] . ولا شك أن عملا كهذا هو في ميزان الدين الصحيح مساو لنشاط اللعب واللهو.

يقول الرازي :" إن المراد منه -أي قوله {وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو}- حياة الكافر ، قال ابن عباس يريد حياة أهل الشرك والنفاق والسبب في وصف حياة هؤلاء بهذه الصفة أن حياة المؤمن يحصل فيها أعمال صالحة فلا تكون لعبا ولهوا "[9]

خصائص الحياة الدنيا: عند تأمل النصوص التي عرضت لبيان قيمة الحياة الدنيا نجدها تركز على عناصر معينة كما لو أن تلك العناصر هي التي تشكل معنى هذا النمط من الحياة في أذهان وسلوك البشر الذين يتمسكون بهذا المستوى.

وعلى سبيل المثال لو قرأنا قوله تعالى:{ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد، ومغفرة من الله ورضوانه، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور} (الحديد 20).

إن هذه الآيات تضع القيم الحقيقية للدنيا في كفة الميزان، فإذا هي تبدوا أمام قيم الآخرة لا تساوي شيئا، بل هي {متاع الغرور}.

وبداية الآية بفعل الأمر اعلموا متبوع بحرف الحصر (إنما) يفيد شيئا عظيما، يفيد أن ما سيتلى هو الذي سيحصر حقا القيم التي ينبغي أن تقيم على اساسها الدنيا لنعرفها معرفة دقيقة فلا نغتر بها فإذا هي ليست عند ذوي الألباب أكثر من :(لعب ــ لهو ــ زينة ــ تفاخر ــ تكاثر)، وهذه العناصر الخمسة تتكرر في آيات مختلفة، ففي الأنعام نجد:{ وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون} (الأنعام32)، وفي العنكبوت نقرأ:{ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون}(العنكبوت 64) وفي سورة محمد نقرأ:{إنما الحياة الدنيا لعب ولهو، وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم}(محمد36) وفي آل عمران نجد :{زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقنا طير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب}

---

[8] - النو ر:39

[9] - الرازي : التفسير الكبير 200/12

(الأنعام14)، وفي الكهف :{المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواب وخير أملا}(الكهف 45).

إن العناصر التي تتكرر في هذه الآيات تشكل في مجموعها تلك القيم الخمسة السابقة وتكررها للتأكيد، وهي قيم لا تساوي شيئا في الميزان القرآني، ولذلك يعقب عليها بما يبين حقيقتها مثل قوله تعالى:(متاع الغرور- متاع الحياة الدنيا – زينة الحياة الدنيا) ويضع كل ذلك في مقابل القيم التي تبنى عليها الحياة الحضارية القائمة على قيم الآخرة، ويعقب عليها بمثل قوله:{وللدارة الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون؟ – وإن الدارة الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون – والله عنده حسن المآب – والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا}.

وهذه التعقيبات كلها تهدف إلى بيان قيمة الخصائص التي تبنى عليها كل حياة على حده، ليعيش المؤمن الواعي على بينة ، فيطلب طريق السعادة بعيدا عن طريق الغرور.

و مجمل القول : إن الحياة الدنيا هي حياة وصفت بهذه الصفة من حيث هي فترة زمنية يعيشها الإنسان الغافل الذي ضعف أفق تصوره للبعد الزماني و المكاني، فحسب أن النهل من اللذات الحسية هو كل ما يمكن أن يستفيده الإنسان من وجوده حتى إنهم كانوا يقولون :{ إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت و نحيا و ما يهلكنا إلا الدهر}[10] .

و لكن هذه الصفة (الدنيا) قد تتغير إذا تغير وعي الإنسان فيها و صار إدراكه للزمان و المكان إدراكا مطلقا و سليما، يقول الرازي:" إعلم أن نفس هذه الحياة لا يمكن ذمها لأن الحياة العاجلة لا يصح اكتساب السعادات الأخروية إلا فيها"[11]. فقيمتها تتحقق من كونها جسرا لا يمكن العبور إلا منه

و يقول قطب :" هذا تقييم مطلق و لكنه في التصور الإسلامي لا ينشئ كما قلنا إهمالا للحياة الدنيا و لا سلبية فيها و لا انعزالا عنها، وليس ما وقع من هذا الإهمال و السلبية و الانعزال و بخاصة في بعض حركات التصوف و الزهد بنابع من التصور الإسلامي أصلا،إنما هو عدوى من التصورات الكنسية الرهبانية،و من التصورات الفارسية و من بعض التصورات الإشراقية و الإغريقية المعروفة بعد انتقالها للمجتمع الإسلامي، و النماذج الكبيرة التي تمثل التصور الإسلامي في أكمل صوره لم تكن

---

[10] – سورة:

[11] – الرازي: التفسير الكبير 200/12.

سلبية و لا انعزالية، فهذا جيل الصحابة كله الذين قهروا الشيطان في نفوسهم، كما قهروه في الأنظمة الجاهلية السائدة من حولهم في الأرض... إنما أفادهم هذا التقييم الرباني للحياة الدنيا و للدار الآخرة أنهم لم يصبحوا عبيدا للدنيا لقد ركبوها و لم تركبهم، و عبدوها فذللوها لله و سلطانه و لم تستعبدهم"[12].

و من هنا يتبين لنا أن الحياة الأولى ليست هي المذمومة في ذاتها، و إنما المذموم فيها هو سقوط النشاط الروحي و العقلي من حساب وعي بعض الناس لتصبح هي الدنيا.

أما إن عاشها الإنسان بوعي سليم، فتلك حياة لها صفة أخرى هي الحياة العليا بمعناها الحضاري المتميز الذي يليق بالإنسان الكريم.

2- الحياة بالمعنى الحضاري:

في سورة النحل يقول المولى تبارك و تعالى:{ من عمل صالحا من ذكر او أنثى و هو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة، و لنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون}[13].

إن الآية تفيد أن الحياة الأولى يمكن ألا تكون دنيا ، و إنما تكون طيبة و لكن تغير صفتها مشروط بطبيعة النشاط فيها، فإن كان النشاط عملا صالحا مقترنا بالإيمان أدى إلى{ الحياة الطيبة} و إن كان غير ذلك أدى إلى { الحياة الدنيا} التي رأينا عمل الكافرين فيها كسراب.

يقول الرازي: " إن إفادة العمل الصالح للحياة الطيبة مشروط بالإيمان"[14]. و معنى ذلك أن الحياة الطيبة هي حياة المجتمع الواعي بأسباب الحضارة بمعناها العميق الذي يشمل النشاط الإنساني الكامل، الذي لا يفصل العمل الصالح عن الإيمان بالأهداف الكبرى التي وجد من أجلها أصلا في هذه الحياة، أليس قد وجد لعمران الأرض؟ أليس قد استخلف فيها لهذا الهدف، ولهدف ثان هو عبادة الله وحده؟ نعم إن الله سبحانه يقول :{وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن

---

[12] - سيد قطب: في ظلال القرآن: 1072/2.

[13] - سورة النحل: 97.

[14] - التفسير الكبير: 112/19.

يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين}[15] ، ويقول :{هو أنشأكم في الأرض واستعمركم فيها}[16] ويقول :{ إني جاعل في الأرض خليفة }[17] .

وهذان الهدفان هما اللذان تعبر عنهما الآيات في مواضع مختلفة بثنائية الإيمان والعمل الصالح ، بهذه الثنائية التي تتضافر على صنع الإنسان الكامل الجدير بالحياة تتحقق الحياة الطيبة ، وبانعدامها تصبح الحياة ضنكا { ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا}[18] .

وهي بهذا المعنى الأخير تصبح غير جديرة باسم "الحياة " أصلا ، إنما هي معيشة رديئة ، يستوي فيها الإنسان -لخلوه من القيم - مع الحيوان الذي كل همه الاستهلاك المعيشي وحسب .

وعلى هذا الأساس يصبح المجتمع أو الفرد الذي فقد الحركة القائمة على القيم الإيمانية والخيرية مجتمعا ميتا ، لان أسباب الحياة الطيبة فيه قد فقدت ، وبفقدانها تفقد الحياة الحضارية مغزاها .

وعندئذ يصبح المجتمع أو الفرد بحاجة إلى من ينفث فيه الروح الحضارية من جديد ، وذلك عن طريق الأنبياء والرسل وكبار المصلحين من العلماء الذين يملكون -بمعونة من الله -القدرة على بث روح النشاط الفعال من جديد.

وهذا هو المعنى المقصود من قوله تعالى :{ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم}[19] .إذ أن القرآن يعد المجتمع الجاهلي الذي فقد القيم الخلقية والروحية مجتمعا ميتا يحتاج إلى من ينفخ فيه أسباب الحياة ، وهي مرهونة باستجابته للشريعة الربانية ، وما تنبثق عنه من الإيمان بالغيب .

يقول قطب :" إنما يدعوهم إلى ما يحييهم ، إنها دعوة إلى الحياة بكل صور الحياة وبكل معاني الحياة... إنه يدعوكم إلى عقيدة تحيي القلوب والعقول وتطلقها من أوهاق الجهل والخرافة ، ومن ضغط الوهم والأسطورة... ويدعوهم إلى منهج للحياة ومنهج للفكر ومنهج للتصور يطلقهم من كل قيد إلا ضوابط الفطرة المتمثلة في الضوابط التي وضعها خالق الإنسان العليم بما خلق ، هذه الضوابط التي تصون الطاقة البانية من

---

[15] -سورة

[16] - هود 61.

[17] -البقرة 30.

[18] - سورة طه : 124.

[19] - الأنفال : 24.

التبدد ، ولا تكبت هذه الطاقة ولا تحطها ولا تكفها عن النشاط الإيجابي البناء "[20].

إن المعنى الحقيقي للحياة الطيبة متوقف على الاستجابة للأسباب الجوهرية التي تصنعها ، وهي بدون شك ليست من صنع الإنسان ، لان الانسان لا يملك العلم المطلق بأسرار المخلوقات ليضع لها التشريعات التي تتضمن الترابط المتين بين الأسباب التي تحقق للانسان الرقي إلى المستوى الذي وجد من أجله ، وانما الذي يملك جوهر تلك الأسباب هو الله القائل :{ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ؟}

يقول قطب :" إن هذه الآيات في تصوير طبيعة الهدى وطبيعة الإيمان إنما تعبر تعبيرا حقيقيا واقعيا عن حقيقة واقعية كذلك ... ولكنها حقيقة روحية وفكرية ، حقيقة تذاق بالتجربة ، ولكن لمن ذاقها فعلا ، إن هذه العقيدة تنشيء في القلب حياة بعد الموت ، وتطلق فيه نورا بعد الظلمات حياة يعيد بها تذوق كل شيء وتصور كل شيء.... إن الكفر انقطاع عن الحياة الحقيقية الأزلية الأبدية التي لا تفنى ولا تغيض ولا تغيب فهو موت. وانعزال عن القوة الفاعلة المؤثرة في الوجود كله فهو موت وانطماس في أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية فهو موت ، والإيمان اتصال واستمداد واستجابة فهو حياة......، وإن الايمان تفتح ورؤية وإدراك واستقامة...كذلك كان المسلمون قبل هذا الدين قبل ان ينفخ الإيمان في أرواحهم فيحييها ويطلق فيها الطاقة الضخمة من الحيوية والحركة والتطلع والاستشراف ، كانت قلوبهم مواتا وكانت أرواحهم ظلاما ،ثم اذا قلوبهم يتضح عليه الإيمان ، فتهتز ،وإذا أرواحهم يشرق فيها النور فتضيء "[21].

تلك هي الحياة بالمعنى الحضاري ، وهي حياة يتميز الإنسان فيها بأنه صاحب قيم ومثل عليا ، وصاحب الفاعلية ، وصاحب إصلاح وعمران ينبثقان عن إيمان عميق بعالم الغيب وعلاقته بعالم الحس، يقول الندوي:"إن الاعتقاد بأن لهذا العالم ولهذه الحياة غرضا وهدفا، وأنهما لم يخلقا عبثا، وأن الإنسان تابع ومحكوم بلا ريب، يحدث في الإنسان الشعور بالمسؤولية والشعور بقيمة الحياة الحقيقية ، فيغتنم كل لحظة من لحظات حياته. وكل نفس من أنفاس عمره، ولا يجب أن يضيعها لتتوفر له السعادة في الحياة

---

[20] - في ظلال القرآن 1494/3

[21] -في ظلال القرآن :3 / 1199-1201

والتمتع بها، بل إنما يفعل ذلك تأمينا للحياة الآتية لإسعادها وتوفير الراحة فيها، وهو يعتبر الحياة وزينتها وزهرتها امتحانا وبلاء له، فلا يخوض فيها إلا كما يدخل أحد في الاختبار... ولا يخطو إليها إلا بتفكير وتفهم دقيق، ولا تصدر منه أعماله إلا بعد فكر طويل وزيل من نفسه السكر والإهمال أي التريث والتهاون في العمل...إن الاعتقاد بأن هذه الحياة فانية ، والحياة بعد الموت باقية خالدة يمنع الرجل من تركيز عنايته على الدنيا ونعيمها، فلا يكون المقياس للنجاح في هذه الحياة ظواهر الأشياء والأفعال فتتغير له الموازين والمقومات البتة للأخلاق والأعمال، فلا يبقى ميزان ولا مقياس إلا النفع في الدين والأجر في الآخرة"[22].

ومن ثم فهي حياة تتميز كل التميز عن "الحياة الدنيا" التي سيق بيان معالمها الأساسية .وهذه تقع في مقابل الموت الحضاري الذي قال فيه بعد ذلك { كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون}(الأنعام 122) "هذاهو السر:هناك تزيين للكفر والظلمة والموت "

وعلى هذا الأساس الذي اتضح به الفرق بين نوعين من الحياة وجدنا القرآن الكريم يحدد هذا التمايز في عبارة مختصرة من سورة فاطر هي : { وما يستوي الأحياء ولا الأموات} (فاطر 22) فالحياة والموت المقصودتان هنا هما الحياةالحضارية والموت الحضاري

قال ابن كثير :" هذا المثل ضربه الله تعالى للمؤمنين وهم الأحياء وللكافرين وهم الأموات"[23] .

ولما كانت الحياة الطيبة هي غاية الحضارات الراقية ، فإن القرآن كان ينبه الغافلين من الناس الذين سرعان ما ينسون الفروق الجوهرية بين الحياتين ، حياة الضنك والحياة الطيبة بمثل قوله تعال :{ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ؟ (البقرة 28) ، ففي هذه الآية إن أخذ لفظ الحياة ا بالمجاز كان المقصود الحياة الطيبة ، أما إن أخذ بمعنى الحقيقة ، فقد يكون المقصود الحياة التي بمعنى الإيجاد من العدم .

3- الحياة بمعنى المدنية:

هذه الحياة ليست بعيدة بمعناها عن الحياة الدنيا ، كما أنها ليست مفارقة كل المفارقة للحياة الطيبة ، الحياة بمعناها الحضاري ، ومن ثم فهي حياة وسط بينهما ، لا يذمها القرآن من حيث هي نشاط سافل ، لان أصحابها قد

---

[22] - الندوي: بين الدين والمدنية ص 106

[23] - ابن كثير : تفسير القرآن العظيم 3 /552

ينتجون عملا معتبرا ، بل قد يكون عملا عظيما ولكن لخلوه من الإيمان فهو قد يلبي مطالب مدنية فحسب ، أما عمق الحياة وهو العقيدة الصحيحة التي من مقتضياتها العمل الصالح بما في ذلك العبادة والعمران فهي خلو منه لأن أهلها كما وصفهم القرآن:{يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون} (الروم 7) فأصحاب هذا التوجه قد يطلعهم الله على بعض خفايا الكون كما يقول البوطي عن طريق العلم المادي والمنهج التجريبي ولكن إلى أجل من باب الاستدراج.

وهذه الحياة قد يسميها القرآن "الحياة الدنيا "كما الحال في النوع الأول ولكن من خلال القيود التي توصف بها نجد أنها غيرها.

ففي قوله تعالى :{ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون}[24] .

هذه الحياة تتميز بنشاط صناعي وهي بهذا تشارك الحياة الحضارية في العمران ولكن نشاطها هذا لخلوه من البعد الروحي قد يضر الإنسان من حيث انه يظن انه يعمل لتحقيق منفعة وخير معين او تحقيق مصلحة محدودة.

ومن هنا وصف العمل بالإبطال ووصفت الصناعة بالإحباط لأنهما لا يسايران الرسالة الحقيقية التي خلق الإنسان من أجلها .

ولكن من جهة ثانية نلاحظ أن المولى عز وجل يوف إليهم أعمالهم في هذه الدنيا فلا يعطلها ولا يسقطها من الحساب المتعلق بالعمران ، ولا يسقط ثمنها بل " يوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون " ، وإنما الذي يخسرونه هو الآخرة، والسبب في ذلك هو أن نشاط هذه الحياة قد أخذ بأسباب المدنية وهي جزء من الأسباب المزكاة عند الله ، فحققت لهم أنشطتهم العمرانية والمدنية، وما في معناهما من الزينة والزخرفة التي تخلو من البعد العقدي .

ومعنى ذلك أن علاقة النشاط بالنتائج سنة من السنن ، لا تتبدل ولا تتغير، " ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا "[25] ، فقد قضى الله أن يحقق المجتهدون في الحياة أهدافهم العملية بالقدر الذي

---

[24] – هود : 15-16

[25] – فاطر 43

يبذلونه من نشاط يحقق زينة الحياة الدنيا ما دام ذلك لا يتعارض مع هدف العمران الذي هو أحد شقي رسالة الإنسان في الأرض.

يقول سيد قطب " إن للجهد في هذه الأرض ثمرته ، سواء تطلع صاحبه إلى أفق أعلى أو توجه به إلى منافعه القريبة وذاته المحدودة.....لان هذه هي سنة الله في هذه الأرض { من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها يوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون} ، ولكن التسليم بهذه السنة ونتائجها لا يجوز أن ينسينا ان هؤلاء كان يمكن أن يعملوا نفس ما عملوه، ونفوسهم تتطلع للآخرة وتراقب الله في الكسب والمتاع فينالوا زينة الحياة الدنيا لا يبخسون منها شيئا وينالوا كذلك متاع الحياة الاخرى[26].

ولا شك أن الحياة المدنية ليست مذمومة بالكلية كما يعتقد كثير من المفكرين وإنما هي مذمومة من حيث أنها قصيرة الأجل وغير نافعة لتكون مثلا أعلى للأمم أو للأفراد، وإلا فإنها بالنسبة للعطاء المادي قد تستوفي شروط الحياة الحسية المقبولة، يقول أبو الحسن الندوي :"إن إعادتي لذكر المدنية الحسية ووصفها لا يعني أن المدنية الحسية نوع من حياة الغابة التي لا توجد فيها حضارة البلد وثقافتها، فإنني أسميها الحسية باعتبار روحها ومأخذها، وأما باعتبار الحياة الحضرية فهي من أرقى مدنيات العالم، ولها حظ كبير في أناقة الحياة في تأمين الراحة في الحياة، وهي أكبر حظا في الظرافة والترف، وباعتبار المادية أكثر تنوعا ورقيا، وأكثر تدقيقا واختراعا...فإنها ركزت كل قواها على هذا الجانب الوحيد فجاءت فيه بالطبع بأحسن النتائج"[27].

وكما يسمي الله الحياة المدنية الحياة الدنيا وينعتها بمواصفات محددة تعينها وتحددها وتبين أنها صالحة للاستمرار ما دامت متمسكة بقيم الإنتاج العمراني المادي ، وما دامت لم تستخدم قوتها في إلحاق الضرر بالخلق ، وما دامت لا تعيث في الأرض فسادا، فإنه قد يسميها"الحرث" وقد يسميها "الحياة العاجلة".

وقد تمثل ذلك في آيتين تصاغان صياغة متشابهة .

أما الأولى فهي قوله عز وجل :{من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نوته منها وما له في الآخرة من نصيب}[28] وأما الثانية فهي قوله : {من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما

---

[26] – في ظلال القرآن 4 /1863

[27] – ابو الحسن الندوي: بين الدين والدولة ص 44-45

[28] – الشوري :20

نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا}[29] .

والحياة بمعنييها - الحرث الدنيوي الذي هو نشاط هدفه تحقيق مآرب الدنيا في غياب الإيمان، والعاجلة التي هي مجال نشاط له نفس الهدف - هي حياة مدنية ، أخذت بالأسباب والسنن وحققت النتائج التي لا تتعارض مع هدف الإنسان الرسالي ، وإن لم يبلغ صاحبها درجته وهذا في الحقيقة كاف للبقاء والاستمرار والتطور ، وربما لذلك عقب عليها بالإتيان في الأولى فقال :{ من كان يريد حرث الدنيا نوته منها } وعقب عليها للتعجيل في الثانية فقال :{ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد}.

ولكن مباركة الله للحياة المدنية يبقى مرهونا لعدم تجاوز الحد في إستغلال القوى العملية للفساد في الأرض ، فإن تجاوز أهلها ذلك حرمهم الله من نعيم المدنية ، وربما سلط عليهم عذاب من عنده ، لأن الحياة عندئذ صارت إلى نوع آخر هو الحياة الدنيا بمعنى السفلى التي تقوم على الشهوات أساسا كما بين في الحديث عن " الحياة الدنيا " سابقا وكما سيأتي بيان ذلك من مجمل الحديث من بعد ولهذا السبب نلاحظ أن الله يقول قبل تلك الآية :{وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا}[30].

فمعنى الآية أن الله فتح عليهم أبواب الخيرات والراحات فعند ذلك تمردوا وطغوا وبغوا ، وبدل أن يشكروا كفروا بأنعم الله فدمر حياتهم لما فقدوا مبررات وجودهم " وإنما خص المترفين بذلك الأمر لأن المترف هو المتنعم ومن كثرت نعم الله عليه كان قيامه بالشكر أوجب فإذا أمرهم بالتوبة والرجوع مرة بعد أخرى مع أنه تعالى لا يقطع عنهم تلك النعم بل يزيدها حالا بعد حال فحينئذ يظهر عنادهم وتمردهم وبعدهم عن الرجوع عن الباطل إلى الحق فحينئذ يصب الله البلاء عليهم صبا ...فإن بقوا مصرين على الذنوب فهناك ينزل عليهم عذاب الاستئصال"[31] وشبيه بمعنى

---

[29] -الإسراء 18-19

[30] -الإسراء 16-17

[31] - الرازي التفسير الكبير 20-ص 176

تلك الآية قوله تعالى:{فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون}[32].

والأمثلة الدالة على الحياة المدنية ، وما يؤول إليه حالها كثيرة جدا في القرآن ، وسنسوق هنا آيات متتاليات من سورة الشعراء تبين بوضوح ما آل اليه أمر الحياة المدنية التي كانت تحياها عاد وثمود ، قال تعالى :{كذبت عاد المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله واطيعوني وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ، اتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين ، فاتقوا الله وأطيعوني واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون ، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ، إن هذا إلا خلق الأولين وما نحن بمعذبين ، فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين، وإن ربك هو العزيز الرحيم ،كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ، أتتركون فيما هاهنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ، فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، قالوا إنما أنت من المسحرين ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ، فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم}[33].

فالحياة التي تستعرضها الآيات هنا هي حياة مدنية ، وليست حياة دنيا ، ولا حياة حضارية، ولذلك نلاحظ أن القرآن الكريم لا ينكر عليهم هذه المؤهلات ، وإنما ينكر عليهم لوازمها ولا ينكر عليهم القوة والعظمة ، وإنما ينكر عليهم أن يجعلوها ذرائع للباطل والبغي ومحادة الله بدليل قوله لهذه الأمة -عاد- ويزدكم قوة إلى قوتكم ــ فهو يضمن لهم أنهم إن آمنوا وعملوا الصالحات يزيد قوتهم تمكنا وبقاء، ومحال ان ينكر القرآن على الناس القوة وهو الداعي إليها والمنفر من الضعف، وإنما شرع القرآن

---

[32] – الأنعام :43

[33] –سورة الشعراء الآيات : 159/123

بجانب الدعوة إلى القوة أن تكون للحق وللخير وللرحمة والعدل ...فالآية تكشف لنا عن نواح من تاريخ هذه الأمة العربية ومبلغ مدنيتها وتعميرها ، فهي تدل على أنهم كانوا بصراء بعلم تخطيط المدن والابنية، وهو علم لا يستحكم إلا باستحكام الحضارة في الأمة ومأخذ هذا من قوله :"بكل ريع" والآية في قوله "آية" هي بناء شامخ يدل على قوتهم هي على كل حال بناء عظيم يدل على عظمتهم وقوتهم ، وما زالت عظمة البناء تدل على عظمة الباني ، ولم ينكر عليهم نبيهم نفس البناء الذي هو مظهر القوة ، وإنما أنكر عليهم الغاية المقصودة لهم من ذلك البناء الشامخ ، فمحط الإنكار قوله :"تعبثون" ولا شك أن كل بناء شامخ لا يكون لغاية شريفة محمودة فهو عبث ولهو وباطل "[34] .

نعم إن الله لم ينكر الحياة المدنية إلا حينما تحولت سلوكات أصحابها إلى حياة دنيا (سفلى) ومعناه أنها قد تعارضت تماما مع الحياة الحضارية ، مما يستوجب الإستئصال ، ولذلك دخل في حديثنا عنصر جديد ، يطرحه التساؤل: ما موقف الإنسان أمام هذا التعارض؟

ضرورة تحديد الموقف عند تعارض الحياة المدنية مع الحياة الحضارية:

في سورة الأحزاب يعرض القرآن الكريم موقفا حادا جدا يتمثل في الإختيار بين حياتين ، قال تعالى :{ يا أيها النبيء قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما، يا نساء النبيء من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا، ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين واعتدنا لها رزقا كريما، يا نساء النبيء لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا، وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا}[35].

---

[34] - مجالس الذكر ص 431.

[35] - الأحزاب : 28-33

هذه الآيات نزلت في بيت النبوة لتختبر قدرة المسلمين في أمر عظيم جدا هو الخيار بين نوعين من الحياة ، الحياة المدنية ، وهي حياة قوامها الحرص على زينة الحياة ومباهجها ، والحياة الحضارية ، وهي حياة قائمة على التقوى والإيمان والعمل الصالح.

ولا شك أن " الحياة الدنيا" بمعنى الحياة التي قوامها الشهوات والتحلل من القيم ليست مطروحة للخيار البتة.

ولكن سوء التمييز بين هذه الأنواع الثلاثة جعل المفسرين يقارنون بين الحياة الدنيا بمعناها البسيط السافل ، والحياة الحضارية التي تقوم على القيم النبيلة التي لا يحددها بدقة إلا الشرع.

وقد أدى ذلك إلى القول بأن "هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن يخبر نساءه بين أن يفارقهن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل فاخترن رضي الله عنهن وأرضاهن الله ورسوله والدار الآخرة فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة"[36] .

والحق أن من يتأمل الآيات بعمق، ويتخلص من الروايات المتعلقة بمناسبة النزول يدرك أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن في ضيق حال، بدليل أنه خيرهن بين إعطائهن أسباب المتاع لكن بعد التسريح وبين البقاء معه كخيار مبدأي بغض النظر عن المكتسبات المادية، الأمر الذي يبين أن الطرح ليس قائما على أساس المادة، وإنما هو على أساس المبادئ والقيم التي ينبغي أن يقوم عليها بيت النبي بعده أسوة وقدوة لبيوت المسلمين. وقد انتبه ابن عطية الأندلسي لذلك فقال : "المعنى إن كان عظم همتكن ومطلبكن الدنيا أي التعمق فيها والنيل من نعيمها وزينة الدنيا المال والبنون فتعالين اعطيكن المتاع الذي ندب الله له" [37] .

وهكذا تم الاختيار واختارت زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم جميعا اختيارا قائما على المبادئ، قالت عائشة رضي الله عنها : " ففي هذا استأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة"[38] . إنها عبارة تترجم لغة المجتمع الواعي الذي ارتفع عن المتاع الزائل حين يوضع في مقابل حياة المبادئ والقيم ، فتنتصر حياة القيم على حياة الأشياء والزينة.

---

[36] – ابن كثير تفسير القرآن العظيم 480/3

[37] –ابن عطية الأندلسي : المحرر الوجيز :67/13 تحقيق المجلس العلمي : مكناس

[38] – ابن كثير 480/3

يقول سيد قطب : " لقد جاء القرآن الكريم ليحدد القيم الأساسية في تصور الإسلام للحياة، هذه القيم التي ينبغي أن تجد ترجمتها الحية في بيت النبي - صلى الله عليه وسلم- وحياته الخاصة، وأن تتحقق في أدق صورة وأوضعها في هذا البيت الذي كان وسيبقى منارة للمسلمين وللإسلام حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ونزلت آيتا التخيير تحددان الطريق ، فإما الحياة الدنيا وزينتها ، وإما الله ورسوله والدار الآخرة ، فالقلب الواحد لا يسع تصورين للحياة ، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.

وقد كانت نساء النبي -صلى الله عليه وسلم- قد قلن :" والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده ، فنزل القرآن ليقرر أصل القضية ، فليست المسألة أن يكون عنده أو لا يكون ، إنما المسألة هي اختيار الله ورسوله والدار الآخرة كلية أو اختيار الزينة والمتاع ، سواء كانت خزائن الأرض كلها تحت أيديهن أم كانت بيوتهن خاوية من الزاد، وقد اخترن الله ورسوله والدار الآخرة اختيارا مطلقا بعد هذا التخيير الحاسم، وكن حيث تؤهلهن مكانتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك الأفق العالي الكريم اللائق ببيت رسول الله العظيم، وفي بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم فرح بهذا الاختيار....هذا الحادث... يحدد التصور الإسلامي الواضح للقيم، ويرسم الطريق الشعوري للإحساس بالدنيا والآخرة ، ويحسم في القلب المسلم كل أرجحة، وكل لجلجة بين قيم الدنيا وقيم الآخرة، بين الاتجاه إلى الأرض والاتجاه إلى السماء ويخلص هذا القلب من كل وشيجة غريبة تحول بينه وبين التجرد لله والخلوص له وحده دون سواه"[39].

من كل ما سبق يتبين أن الله سبحانه وتعالى يوجب على المؤمنين عند تعارض أنواع الحيوات أن يجددوا موقفهم بصراحة دفعا للتردد الذي كثيرا ما يفسد على المجتمعات والأفراد دينهم ودنياهم، وذلك ليتمحض قلب المؤمن وفكره ونشاطه لعمل الخير وحده.

ويمكن أن نبين موقف الإنسان أمام اختيارات ثلاثة متعارضة على الرسم التالي:

1-حب الأشياء + العمل المنتج = حياة مدنية

2-حب الله ورسوله + الآخرة + عمل صالح= حياة الحضارة

3-حب الشهوات + عمل مبهم = حياة دنيا

---

[39] - من ظلال القرآن : 5 / ص 2855

وخلاصة القول: إن نوع الجهد الذي يبذله الإنسان هو الذي يحقق نمط الحياة ويحدد معالمها الأساسية فقد يكون مباحا، وقد يكون واجبا ، وقد يكون حراما ، وهو في جميع الأحوال يحقق نتائج تتناسب مع طبيعته ، مما يؤدي إلى تصنيف ثلاثة أنواع من الحياة هي على الترتيب كما ذكرنا :

1- الحياة الدنيا : وأساس نشاطها الشهوات وهذه تدور في فلك لا يميز بين المباح والمحرمات ، ذلك لان " الغرض من متاع الدنيا هو الشهوات القائمة على الحرام وهذه مردية للإنسان لا في الآخرة فحسب ، بل كذلك في الدنيا ولو بعد حين ، وهي ظاهرة في حياة الأمم وفي حياة الأفراد ، وعبر التاريخ شاهدة على مصير كل أمة اتبعت الشهوات على مدار القرون "[40] .

2- الحياة المدنية : وأساس نشاطها العمران المدني الحلال ، فهذه يزيدها الله قوة بحسب ما يبذل أهلها من نشاط، وما لهم من مؤهلات علمية وقدرات صناعية وإرادات فولاذية، ولكن مباركة الله لها تبقى في إطار زمني محدد تبعا لنواياهم ومقاصدهم التي هي انبثاق عن عقيدتهم ، فإن تجاوزوا الحد إلى استغلال قوتهم وصناعتهم في الحرام كسفك الدماء والفساد في الأرض فإن الله سيأخذهم أخذ عزيز مقتدر لأنهم دخلوا في دائرة الكبائر الكبرى، ومثال ذلك قوم عاد.

قال ابن باديس :" ولنذكر عادا فهي أمة عربية ذات تاريخ قديم ومدينة باذخة ذكرها القرآن فذكرها بالقوة والصولة وعزة الجانب ونعى عليها الصفات الذميمة التي تنشأ عن القوة "[41] .

3- الحياة الحضارية : وأساسها الإيمان والعمل الصالح ، فهذه يباركها الله في الدنيا ويزيدها قوة إلى قوة ، ويباركها في الآخرة لقيامها بالواجب ولهذا كان الرسل عليهم السلام يحثون أممهم على التمسك بهذه الحياة بالحفاظ على أسباب بقائها ، فقال هود لقوم عاد :" ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين"[42] ، وقال نوح لقومه :" فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا

---

[40] - في ظلال القرآن 1863/4

[41] - عبد الحميد بن باديس : مجالس التذكير ص 430

[42] -هود 52.

يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا، ما لكم لا ترجون لله وقارا"[44] .

وقد جمعت معاني تلك الحيوات في قوله تعالى :{ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا، كلا نمد هؤلاء ، وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محضورا ، انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا}[45] .

قال بن باديس : " وقد افادت هذه الآيات كلها أن الأسباب الكونية وضعها الله تعالى في هذه الحياة وسائل لمسبباتها موصلة -بإذن الله تعالى- من تمسك بها إلى ما جعلت وسيلة إليه في مقتضى أمر الله وتقديره وسننه في نظام هذه الحياة والكون ولو كان ذلك المتمسك بها لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا يصدق المرسلين ومن مقتضى هذا أن من أهمل تلك الأسباب الكونية التقديرية الإلهية ولم يأخذ بها لم ينل مسبباتها، ولو كان من المؤمنين وهذا معلوم ومشاهد من تاريخ البشر في ماضيهم وحاضرهم، نعم لا يضيع على المؤمن أجر إيمانه ، ولكن جزاءه عليه في غير هاته الدار ، كما أن الآخر لم يضع عليه أخذه بالأسباب فنال جزاءه في دار الأسباب وليس له في الآخرة إلا النار فالعباد إذا على أربعة أقسام :

1- مؤمن أخذ بالأسباب الدنيوية ، فهذا سعيد في الدنيا والآخرة.

2- ودهري تارك لها فهذا شقي فيهما

3- ومؤمن تارك للأسباب فهذا شقي في الدنيا وينجو بعد المؤاخذة على الترك في الآخرة.

4- ودهري آخذ بالأسباب الدنيوية فهذا سعيد في الدنيا ويكون في الآخرة من الهالكين.

فلا يفتتن المسلمون بعد علم هذا بما يرونه من حالهم وحال من لا يدين دينهم ، فإنه لم يكن تأخرهم لإيمانهم، بل بترك الأخذ بالأسباب الذي هو من ضعف إيمانهم ، ولم يتقدم غيرهم بعدم إيمانهم بل بأخذهم بأسباب التقدم في الحياة، وقد علموا أنهم مضت عليهم أحقاب وهم من أهل القسم الأول بإيمانهم وأعمالهم، وما صاروا من أهل القسم الثالث إلا لما ضعف إيمانهم

---

[44] -نوح : 10-13.

[45] -الإسراء : 80.

وساءت أعمالهم وكثر إهمالهم ، فلا لوم إذا إلا عليهم في كل ما يصيبهم ، وربك يقضي بالحق وهو الفتاح العليم"[46] .

الحياة الباقية :

لدى تأملنا للحيوات الثلاث السابقة نجد الحياة الحضارية تتميز عن الحياة المدنية والحياة الدنيا بارتباطها بالدار الآخرة وحب الله ورسوله.

وهذا يعني أن الحياة الحضارية تتقاطع مع الدار الآخرة، وإنما تتقاطع معها لأن نشاط الإنسان فيها يتميز بـــ:

1- الإيمان الذي يجعل الأعمال تقوم على أساس الجزاء الأخروي بصورة أساسية ، مما يستوجب استحضار رقابة الله في السر والعلانية.

2- الأعمال التي تنجز خالصة لله وترجو الثواب المضاعف في دار البقاء.

والنصوص القرآنية تبين ذلك بوضوح، ففي سورة الفجر يعرض الله موقف الإنسان يوم القيامة وهو يعض على يديه من الندم لأنه لم يجعل أعماله للحياة الباقية ، فيقول :{ كلا إذا دكت الأرض دكا دكا، وجاء ربك والملك صفا صفا ، وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى،يقول يا ليتني قدمت لحياتي}[47] .

إن السياق يفيد أن الإنسان المغفل سيدرك في هذه اللحظة التي لا ينفعه فيها لا التذكر ولا الندامة ، أن هذه " هي الحياة الحقيقية التي تستحق اسم الحياة، وهي التي تستأهل الاستعداد والتقدمة والادخار لها"[48].

ولكن في القرآن ما يفيد أن الإنذار من مغبة إيثار الحياة الدنيا أو الحياة المدنية على الحياة الباقية قد تكرر مع الرسل ، فيقول المولى عز وجل :{ فذكر إن نفعت الذكرى سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى، قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ،بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى}[49] .

---

[46] -مجالس التذكير : 82

[47] -الفجر 12-24.

[48] - في ظلال القرآن ص 3906.

[49] -الأعلى : 9-19.

ولم يسبق التذكير فحسب، ولكن تم أيضا الترغيب في الدار الباقية بشكل ملفت للانتباه ، إذ قال تعالى :{ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون}[50] .

يقول ابن كثير :"يقول تعالى مخبرا عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها وأنها لا دوام لها وغاية ما فيها لهو ولعب وان الدار الآخرة لهي الحيوان ، أي الحياة الدائمة ، الحق الذي لا زوال له ولا انقضاء بل هي مستمرة أبد الآباد"[51] .

إن استمرار الحياة مرتبط بطبيعة نشاط الإنسان في علاقته مع رسالته ، وهذا يطرح تساؤلا خطيرا هو : ما مصير من دفع حياته الحضارية مقابل حياته الباقية؟ هذا ما سنعرفه في موضوع حياة الشهداء.

حياة الشهداء :

إن آيات القرآن الكريم صريحة وواضحة في بيان مكانة من يعيش على المبادئ والقيم ، كما هي واضحة في بيان مكانة من يموت حماية للمبادئ والقيم.

والحق أن مكانة الشهيد عظيمة عند الله ، حتى إن الآيات تنفي عنه الموت تماما، مما يجعلنا نفهم أنه ينتقل مباشرة من الحياة الحضارية إلى الحياة الباقية فيقول المولى :{ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون} [52] ، قال في تفسير المنار :{ إنها حياة غيبية تمتاز بها أرواح الشهداء على سائر أرواح الناس ، بها يرزقون وينعمون ولكننا لا نعرف حقيقتها ولا حقيقة الرزق الذي يكون بها ، ولا نبحث عن ذلك لأنه من عالم الغيب الذي نؤمن به ونفوض الأمر فيه لله تعالى"[53] .

وقال في تفسير قوله تعالى :{ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين}[54].

---

[50] - العنكبوت : 64.

[51] - تفسير القرآن العظيم : 421/3.

[52] - البقرة : 154.

[53] - تفسير المنار : 2 /39.

[54] - آل عمران : 169-170.

قال : " أحياء في عالم غير هذا العالم هو خير منه للشهداء وغيرهم من الصالحين، ولكرامته وشرفه أضافه الرب تعالى إليه ، فهذه العندية عندية شرف وكرامة لا مكان ومسافة "[55].

وقال الزمخشري : " المعنى هم أحياء لدلالة الكلام ... يرزقون مثل ما يرزق سائر الأحياء يأكلون ويشربون، وهو تأكيد لكونهم أحياء ووصف لحالهم التي هم عليها من التنعم برزق الله"[56].

والحق أننا حينما نتأمل الآيات ونقارن بينها ، يتبين لنا ان الله سبحانه وتعالى يمنعنا من القول بموت الشهداء، ويصر على حياتهم وينبهنا إلى أن شعورنا هو العاجز عن إدراك حقيقة حياتهم لأنها صارت غيبا ، فينبغي أن تدرك كما تدرك سائر الغيوب عن طريق الوحي، فالله قال أحياء يتكلمون ويرزقون ويفرحون ويستبشرون وكل ذلك سلوك الحي على الحقيقة، مثلهم كمثل الملائكة، فأمرهم يفهم من صريح النص، وليس لنا أن نضيف أو ننقص شيئا.

ولكن الذي يهمنا أكثر هو معرفة الأساس الذي تقوم عليه الحياة من حيث هي نوع من أنواع الحياة مختلف عن الأنماط السابقة.

والذي يتعين هو أن هذه الحياة قوامها التضحية بالنفس والنفيس في سبيل المبادئ والقيم ، ولذلك حينما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله [57] .وسأله آخر عن رجل يريد الجهاد في الله وهو يبتغي عرضا من الدنيا؟ فقال : لا أجر له ، فأعاد عليه ثلاثا كل ذلك يقول لا أجر له[58] .

إن هذين الحديثين يبينان بوضوح طبيعة المقومات الاساسية التي تقوم عليها حياة الشهداء، إنها مقومات تختلف عن مقومات حياة المدنية، والحياة الدنيا، وحتى عن الحياة الحضارية، إنها حياة تتطلب مقومات أقوى ولذلك كانت مكانة صاحبها عند ربه أعظم.

يقول قطب : " شهداء في سبيل الله، قتلى أعزاء أحياء، قتلى كراما أزكياء ، فالذين يخرجون في سبيل الله ، والذين يضحون بأرواحهم في معركة الحق ، هم عادة أكرم القلوب وأزكى الأرواح وأطهر النفوس، هؤلاء

---

[55] - تفسير المنار : 233/4.

[56] -الكشاف : 479/1.

[57] - أخرجه مالك والشيخان.88

[58] -أخرجه ابو داود.

الذين يقتلون في سبيل الله ليسوا أمواتا ، إنهم أحياء فلا يجوز أن يقال عنهم أموات في الحس والشعور إنهم أحياء بشهادة الله سبحانه وتعالى فهم لا بد أحياء ، إنهم قتلى في ظاهر الأمر، وحسبما ترى العين ، ولكن حقيقة الحياة لا تقررها هذه النظرة السطحية الظاهرة ، إن سمة الحياة الأولى هي الفاعلية والنمو والامتداد وسمة الموت الأولى هي السلبية والخمود والانقطاع، وهؤلاء الذين قتلوا في سبيل الله فاعليتهم في نصرة الحق الذي قتلوا من اجله فاعلية مؤثرة...فهم ما يزالون عنصرا فعالا دافعا مؤثرا في تكييف الحياة وتوجيهها "[59] .

إن حياة الشهيد حياة مبادئ ، فهي كحياة الانبياء والرسل وغيرهم ممن نذر نفسه ، وهي أغلى ما يملك في سبيل الله ورسالته إلى الناس ، وهذا النوع هو المشار إليه في قوله تعالى :{ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين}"[60].

هكذا تكون كل حركاته وسكناته، وجوده وعدمه ، كل ذلك في سبيل المبادئ والقيم التي أمر الله بها . ذلك لأنه يحيى عن بينة كما يموت عن بينة { ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيي عن بينة}"[61] . قال ابن كثير :" ليصير الأمر ظاهرا والحجة قاطعة ، والبراهين ساطعة ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة فحينئذ يهلك من هلك أي يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره إنه مبطل لقيام الحجة عليه ويحيى من حيي ، أي يؤمن من آمن على بينة أي حجة وبصيرة والإيمان هو حياة القلوب"[62] .

حياة التشريعات :

إن الدين الإسلامي جاء لتحقيق المقاصد الأساسية المعروفة التي هي : حفظ الدين ، وحفظ النفس ، وحفظ النسل ، وحفظ العقل ، وحفظ المال وهي كلها مقاصد تعمل على تحقيق الحياة بمعنى من المعاني السابقة.

ولكن الذي يهمنا هنا هو حفظ النفس ، إذ أن المولى تبارك وتعالى أنبأنا - وهو أعلم بحالنا- أن التشريعات الصادقة في مجال القصاص غاية

---

[59] - في ظلال القرآن :211/1 دار إحياء التراث.88

[60] -الأنعام 162.

[61] - الأنفال 42.

[62] -ابن كثير : تفسير القرآن العظيم 315/2

في الحفاظ على الحياة فقال :{ ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون}[63] .

صريح الآية يفيد أن "القصاص" من حيث هو تشريع يضمن للمجتمعات التي تحرص على إقامته : "حياة" .

والمفسرون يقولون : " المعنى ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة"[64] .

ولنا أن نتساءل عن هذه " الحياة العظيمة" التي يحددونها هنا مقترنة بالتشريع ما هي ؟ وما مقوماتها الحقيقية؟.

دلالة التركيب تفيد أن الله عرف " القصاص " ليحدد جنس التشريع ونكر " حياة" ليفيد الكثرة والعظمة. وتفسير المنار يرى أن الله "عرف القصاص ونكر الحياة للإشعار بأن في هذا الجنس من الحكم نوعا من الحياة عظيما لا يقدر قدره ولا يجهل سره "[65] .

والزمخشري يذكر أنه قد كان " يقتل بالمقتول غير قاتله فتثور الفتنة ويقع بينهم التناحر ، فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه حياة أي حياة أو نوع من الحياة ، وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالاقتصاص من القتل ، لأنه إذا هم بالقتل فعلم أنه يقتص منه فارتدع سلم صاحبه من القتل وسلم هو من القود فكان القصاص سبب حياة نفسين"[66] ويضيف إلى ذلك شارحا قوله تعالى {لعلكم تتقون} قائلا : " أي أريتكم ما في القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس لعلكم تتقون ، تعلمون عمل أهل التقوى في المحافظة على القصاص والحكم به ، وهو خطاب له فضل اختصاص بالأئمة"[67].

وكلمة الزمخشري هذه تجعل " الحياة التشريعية" نتيجة للارتداع الذي يضع حدا للفتن والتناحر اللذين هما من نتائج عادة جاهلية هي "الثأر".

والتعليل بوضع حد للثأر وما ينجم عنه من تقاتل مهم في تحديد أمراض النفوس وآثارها ولكنه قاصر عن ترجمة الآية باعتبارها شرعا للناس كافة، بغض النظر عن عادة الأخذ بالثأر التي تجد فاعليتها في نفوس البدو بشكل أساسي أما المدن الآهلة بالسكان ، والشعوب المتمدنة

---

[63] -البقرة 179.

[64] -الزمخشري : الكشاف 333/1.

[65] -تفسير المنار : 2 ص 130.

[66] - الكشاف 333/1

[67] - الكشاف 333/1

فإن هذه العادة تقل حتى تكاد تختفي ، بينما النص جاء صالحا لكل زمان ومكان إذ هو من الآيات المحكمات وفضلا عن ذلك ، فإن المفسرين أخذوا القصاص هنا من المعنى المستفاد من السياق، الذي هو القتل ولم يأخذوه من المعنى اللغوي الذي هو تتبع الأثر ، في حين أن القصاص ورد في آيات أخرى في غير القتل ، فورد خبرا للحرمات عامة ، وورد خبرا للجروح بصفة عامة ، وورد محددا للقتل قال تعالى :{ الشهر الحرام بالشهر الحرام، والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليهم بمثل ما اعتدوا عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين} (البقرة : 194).

وقال :{وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الظالمون} (المائدة 45).

وقال :{ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والانثى بالأنثى ،فمن عفي له ...}(البقرة 178).

وقد اورد ابن العربي من كلام العرب القتل أنفى للقتل ثم آية " كتب عليكم القصاص في القتلى" وآية " ولكم في القصاص حياة" ثم قال : " وبين الكلامين في الفصاحة والعدل بون عظيم" وعرف القصاص بآية : المساواة مع استيفاء الحق [68] ، وعمق الحديث في المساواة فجعل حرمة النفس واحدة بين الكافر والمسلم فقال : " انهما متساويان في الحرمة التي تكفي في القصاص وهي حرمة الدم الثابتة على التأبيد فإن الذمية محقون الدم على التأبيد والمسلم محقون الدم على التأبيد ، وكلاهما قد صار من أهل دار الإسلام[69] .

واورد قوله تعالى :{ والحرمات قصاص} ثم قال :"هذا دليل على أن لك أن تبيح دم من أباح دمك ، وتحل مال من استحل مالك ، ومن اخذ عرضك فخذ عرضه بمقدار مال فيك ولذلك كله تفصيل . أما من أباح دمك فمباح دمه لك لكن بحكم الحاكم لا باستطالتك وأخذ لثأرك بيدك ولا خلاف فيه"[70] .

ولعل تفسير المنار قد اصاب جوهر الحكمة حينما قال : " إن الآية على كونها أبلغ ، وكلمتها أوجز ، قد أفادت حكما لم تكن عليه العرب قبلها ، ولم يطلبه احد من عقلائهم وبلغائهم ، وهو المساواة في العقوبة وبيان أن

---

[68] – أحكام القرآن 61/1

[69] – أحكام القرآن 62/1

[70] – نفسه 111/1.

فيه الحياة الطيبة وصيانة الناس من اعتداء بعضهم على بعض ، وأما أمرهم بالقتل ليقل القتل أو ينتفي فهو يصدق باعتداء قبيلة على قبيلة ، والإسراف في قتل رجالها لتضعف فلا تقدر على اخذ الثأر فيكون المعنى : إن قتلنا لعدونا إحياء لنا وتقليل أو نفي لقتله إيانا.

وأين هذا الظلم من ذلك العدل ، فالآية الحكيمة قررت أن الحياة هي المطلوبة بالذات ، وان القصاص وسيلة من وسائلها...

هذا وان دول الإفرنج تجري على سنة عرب الجاهلية في جعل القتل لأعدائها وخصومها أنفى لقتلهم إياها ، وذلك شأنهم مع الضعفاء كالشعوب التي ابتليت باستيلائهم عليها باسم الاستعمار أو غيره من الأسماء.

قال تعالى بعد هذا البيان المتضمن للحكمة والبرهان :{ يا أولي الألباب} فخص بالنداء أصحاب العقول الكاملة مع إن الخطاب عام للتنبيه على ان ذا اللب هو الذي يعرف قيمة الحياة والمحافظة عليها، ويعرف ما تقوم به المصلحة العامة وما يتوسل به إليها ... كأنه يقول إن ذا اللب هو الذي يفقه سر هذا الحكم وما اشتمل عليه من الحكمة والمصلحة ، فعلى كل مكلف ان يستعمل عقله في فهم دقائق الأحكام وما فيها من المنفعة للانام ، وهو يفيد ان من ينكر منفعة القصاص بعد هذا البيان فهو بلا لب ولا جنان ولا رحمة ولا حنان ، وقوله :{ لعلكم تتقون} ..."أي ثبتت لكم الحياة في القصاص لتمدكم وتهيئكم للتقوى والاحتراس من سفك الدماء ، وسائر ضروب الاعتداء إذ العاقل حريص على الحياة ولوع بالأخذ بأسبابها والاحتراس من غوائلها "[71] .

إن التشريع تجاوز مسألة "الثأر" لأن الزمان كفيل بالقضاء عليها إلى مسألة أهم هي حفظ الحياة العامة للمجتمعات عن طريق التشريع.

ولهذا السبب خاطب الخاصة من ذوي " الألباب" لأنهم أقدر أفراد المجتمعات على فهم القضايا الكبرى المتعلقة بمقاصد الشريعة فذووا الألباب هم الذين يعرفون قيمة الحياة والمحافظة عليها ، ويعرفون أن التشريع المحكم هو الذي يضمن "الحياة الطيبة".

ثم إذا كان الزمخشري قد استنتج من صيغة النص أن معنى الآية وفحواها "ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة"، والشيخ رشيد رضا قد زاد على ذلك أن النص بيان أن في القصاص"الحياة

---

[71] -رشيد رضا ومحمد عيد : تفسير المنار 1/132-133.

الطيبة"، فإنهما في الواقع يتفقان على أن التشريع يضمن "الحياة الحضارية" التي سبق بيان مقوماتها وخصائصها.

ومعنى ذلك أن الحياة التشريعية ، هي إحدى أهم ركائز الحياة الحضارية، وأن مجتمعا لا قانون يحكمه بالعدل هو مجتمع همجي كان ما كان.

ولئن كان كل من صاحب الكشاف وصاحبي تفسير المنار يتفقان على أن تخصيص " ذوي الألباب" بالنداء له دلالة كبيرة أقل ما يقال فيها أنهم أئمة وأنهم أدرى الطبقات الاجتماعية بقيمة الحياة الطيبة ووسائلها فإن ذلك يعني أن العناصر الفعالة في حفظ " قيمة الحياة" لأفراد المجتمع هم علماؤها وحدهم ، وصدق الله العظيم حينما قال { إنما يخشى الله من عباده العلماء}. فكما أن السر في حصر الخشية فيهم يعود لمعرفتهم الله وتقديره حق قدره، فكذلك الحال بالنسبة للحياة لا يقدرها حق قدرها إلا من يعرفها حق المعرفة.

ولهذا السبب كان المولى تبارك وتعالى قد جعل الاعتداء على النفس الواحدة اعتداء على الحياة بأكملها فقال:{ من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا}[72].

ذلك لأن العبرة بالحياة في ذاتها هو مربط القضية، فمن تجرأ على إزهاق نفس بالباطل فقد تجرأ على إعدام "الحياة".

يقول سيد قطب :" وفي القصاص حياة على معناها الأشمل الأعم فالاعتداء على حياة فرد اعتداء على الحياة كلها، واعتداء على كل إنسان حي يشترك مع القتيل في سمة الحياة ، فإذا كف الجاني على إزهاق حياة واحدة فقد كفه عن الاعتداء على الحياة كلها وكان في هذا الكف حياة مطلقة لا حياة فرد ولا حياة أسرة ولا حياة جماعة، بل حياة "[73] ، ذلك لان "حق الحياة واحد ثابت لكل نفس فقتل واحدة من هذه النفوس هو اعتداء على حق الحياة ذاته ، الحق الذي تشترك فيه كل النفوس"[74] .

---

72 -المائدة 32

73 -في ظلال القران ص 235

74 -نفسه 2 /877 .

ونخلص من ذلك إلى أن للتشريعات قوة في حفظ النفس وتحقيق الحياة الطيبة، وأن تحقيق ذلك تابع لأمرين : قوة التشريع وقوة الإمام القائم على تطبيقه ، يقوى بقوتهما ويضعف بضعفهما.

وهنا يكمن الفرق الجوهري بين حياة المدنية ذات البعد الحسي الصرف والحياة الحضارية القائمة على التشريع ، ذلك لأن "طبيعة التمتع باللذات والمنافع وانتهاز الفرص لا تفرق بين ما يجوز وما لا يجوز ، وبين العمل الشرعي وغير الشرعي بل إنها تؤثر المنفعة الشخصية على الفائدة الاجتماعية وتؤثر الفوضى على ما يقتضيه النظام ، مهما تولد من ذلك مفاسد جسدية وويلات اجتماعية والخيانة في التجارة والتطفيف في الميزان من أدنى معطيات هذه الفكرة وهذه السيرة"[75].

وفي الوقت نفسه ،يكمن الفرق الجوهري بين الحياة الحضارية من جهة والحياة الحسية الصرف ،والحياة الاشراقية الصرف ، إذ ثبت أن التصورات الاشراقية الصرف ، تزهد في الحياة ،ومن ثم تعطل النشاط الفعال للإنسان مما يؤدي لتعطيل شق من رسالة الإنسان في الأرض وهو العمران ، بينما تعطل الحياة الحسية الصرفة النشاط الروحي له فيحدث عطب كبير في الضمير وتفسد التقوى التي هي صمام الأمان في الحياة الطيبة.

وعليه فإذا كانت التصورات الإشراقية الصرف تجتث أصول المدنية وتخرب أية مدنية بسهولة ، ولم يحدث أن قامت عليها حضارة في التاريخ فإن الحسية "الحياة المدنية" تهدم الحضارات بعد بنائها بسبب الدخول في الترف.

ومعنى ذلك أن الحسية الخالصة والروحية الخالصة "هما على طرفي نقيض ، ولكن بينهما فرقا كبيرا ، وهو أن الحسية تفوز في إفاقة المدنية على مبادئها بسهولة ، وأما الروحانية الخالصة فلم تقم على فلسفتها حياة متحضرة في أضيق نطاق وأصغر رقعة في تاريخ الإنسانية الطويل"[76].

إن الفرق الجوهري بين الحياة الحضارية ، والحياة الحسية والحياة الإشراقية الروحية الصرف يكمن في " القصاص " ، فحيثما وجد القصاص وجدت الحياة الطيبة ، لأن القصاص رمز لـ"دولة التشريع" ومن ثم كان القصاص رمزا للحياة فقال :{ ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب}.

---

[75] -أبو الحسن علي الحسني الندوي : بين الدين والمدنية ص 48.

[76] - نفسه 69.

فإن تعطل القصاص في الحياة المدنية ذات البعد الحسي الصرف ، أو تعطل في الحياة الإشراقية بسبب الزهد في العمران أصلا ، بحيث ينعدم التشريع الذي ينظم الحياة وينمي الدوافع الفعالة الصانعة للعمران ، ويضع حدودا للحلال والحرام ويعلم الناس أن المتعة ليست حراما في ذاتها :{ قل من حرم زينة الحياة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة}[77].

فإذا تعطل القصاص بمفهومه الواسع الرمزي فقد تعطلت أسباب الحضارة ، ولذلك " كانت النتيجة دائما أن الذين قبلوا الفلسفة الاشراقية عاشوا على أسس المادية والحسية منقطعين في حياتهم الخارجية عن المبادئ الاشراقية والروحية ، واضطروا في حياتهم إلى التلقيح بين المادية والروحية فكانوا في معابدهم إشراقيين وروحانيين ، أما على بساط السياسة فكانوا ماديين وحسيين بكل معنى الكلمة"[78] .

وبمعنى آخر إن تغييب القصاص في المدنية الحسية كان بسبب الغلو في الحياة الإشراقية مما أدى إلى فكرة "اللائكية".

ومن هنا نفهم بالضبط ماذا يعني قول الله تعالى {ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون}.

قال الصابوني :" إذا بقي المعتدي يرتع دون جزاء أو عقاب أدى ذلك إلى إثارة الفتن واضطراب الأمن وتعريض المجتمع إلى سفك الدماء البريئة أخذا بالثأر ، فإن الغضب للدم المراق فطرة في الإنسان، والإسلام راعى ذلك فقرر شريعة القصاص حتى يستل الأحقاد من القلوب ويقضي على أسباب البغي والخصام والعدوان"[79] .

حياة الذل والهوان :

حقيقة الإنسان الفاضل مجموعة من القيم النبيلة يحيا بحياتها ويموت بموتها ، ولذلك ترى الأمم والشعوب والحضارات تحرص كل الحرص على قيمها ، حتى لتجدها تستنفر كل نفس ونفيس من اجلها ، ولئن كان أعلى شيء لدى الإنسان هو ماله وروحه فإنه قد يبذلهما حفاظا على قيمه وعلى رأسها عقيدته التي عنها تنبثق كل القيم العليا للإنسان الشريف .

---

77 – سورة

78 – الندوي : بين الدين والمدينة ص 69.

79 – محمد علي الصابوني : روائع البيان تفسير آيات الأحكام ص 185.

ولكن ليس كل الناس يعرفون دور القيم في حياتهم كأمة لها كيانها ولها خصائصها ومبادئها ، ومن ثم نجد بعض الشعوب تنفر من التضحية والفداء بالنفس والمال من أجل أي قيمة من القيم العليا، وذلك حين تصبح النفس والمال عندها هي قيمة القيم التي لا يقاس إليها شيء. فإذا بلغت الأمة هذا المبلغ فقد مهدت لقبول الذل و الهوان من أجل البقاء فوق الأرض نفسا و الانتفاع ببعض عرض الحياة الدنيا من مال.

و لعل القرآن الكريم لم يصف لنا أمة تجسدت فيها هذه الصفة مثل بني إسرائيل، إذ وصفهم الله بقوله:{ و لتجدنهم أحرص الناس على حياة، و من الذين أشركوا، ويود أحدهم لو يعمر ألف سنة}[80] .قال صاحبا تفسير المنار:"ذكر الحياة للتحقير كأنه يقول: إنهم شديدوا الحرص على الحياة و إن كانت في بؤس و شقاء، ثم خص طائفة من الناس بالذكر عرفوا بشدة الحرص على الحياة و تمني طول البقاء في الدنيا لأنهم لا يؤمنون بحياة بعدها"[81] .

إن الذي جعل المشركين و اليهود يشتركون في هذه الصفة ، هو اليأس من حياة الآخرة التي بالإيمان بها ينمو الشعور بالقيم في النفوس، فلما يئسوا منها كان لزاما أن يكون حرصهم على العيش الذليل بأي صورة كان.

و لعل أعظم ذل عاشه بنوا إسرائيل هو عملية تقتيل الأبناء و استحياء النساء التي مارسها معهم فرعون.

و قد اهتم القرآن بهذه الحياة التي عاشوها في ظل الدكتاتورية الفرعونية و الاستعباد الطاغوتي اهتماما بالغا، فقال:{ و إذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم و يستحيون نساءكم و في ذالكم بلاء من ربكم عظيم}[82] .و قال :{ و قال الملأ من قوم فرعون: أتذر موسى و قومه ليفسدوا في الأرض و يذرك و آلهتك، قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم و إنا فوقهم قاهرون}[83] .

إن عملية استحياء النساء هذا، ليس من باب الرحمة و الشفقة و لكن من باب الإمعان في إذلالهم و إهانتهم، إذ القيم تقتضي أن يدافع الرجال على أعراضهم، فإذا هم يقتلون و يرون أعداءهم يستحيون نساءهم نكاية فيهم فلا تتحرك فيهم روح لأنهم في الحقيقة موتى حضاريا.

---

80 – سورة البقرة: 96.

81 – تفسير المنار: 1/ 310.

82 – سورة الأعراف: 141.

83 – سورة الأعراف:127.

و قد وصف القرآن عملية التذليل و الاحتقار هذه بقوله:{ يسومونكم سوء العذاب}، ليبين أن هذا النوع من التنكيل هو أشد أنواع العذاب لمن فيهم الروح الحضارية،ممن يملكون الضمائر الحية، ثم فصل بعد الاجمال فقال:{ يقتلون أبناءكم و يستحيون نساءكم}.

و قد عقب في الآية الأولى بما يبين أن في ذلك امتحانا عظيما لمن له قلب يحس، و عقب على الثانية بما يبين أن آل فرعون كانوا يغترون بما يفعلون ويعدونه من باب القمر.

والسر من وراء هذا الإذلال وهذا القهر هو إضعاف بني إسرائيل كأمة لها كيان متميز "ذلك بأن الذليل الذي لا تطلق إرادته في أعماله هو بمنزلة الشخص الذي يضعف عن تناول الغذاء الذي يمد حياته فهو يذل رويدا رويدا حتى ينحل ويموت، والقوة المعنوية التي تحفظ حياة الأمم هي قوة الأرواح و الإرادات... فمتى خذلت النفس بالتسلط على إرادتها تبعها الجسم فيضعف بضعفها"[84] .

و الغرض من ذكر الله لما من به على بني إسرائيل مزدوج. فمن جهة ليكون شاهدا على بني إسرائيل اللاحقين على أنهم لم يغيروا من أمرهم كأمة شيئا، ومن جهة هو بعث "الهمة إلى التخلق بالأخلاق الفاضلة والترفع عن الرضا بما دون المقام الذي رفعهم الله إليه، وتوطين النفس لقبول الموعظة"[85] .

و الحق أن الله سبحانه قد كرر في غير آية أنه فضل بني إسرائيل على العالمين، ولكن ذلك التفضيل ليس مطلقا، بل هو مقيد بشرط العمل بما نزل إليهم فلما نكثوا عهدهم مع الله أذلهم. يقول قطب:" و تفضيل بني إسرائيل على العالمين موقوت بزمان استخلافهم و اختيارهم. فأما بعدما عتوا عن أمر ربهم وعصوا أنبياءهم، وجحدوا نعمة الله عليهم، و تخلوا عن التزاماتهم و عهدهم فقد أعلن الله حكمه عليهم باللعنة والغضب والذلة والمسكنة وقضى عليهم بالتشريد وحق عليهم الوعيد"[86] .

ومع ذلك يبقى كل ذلك امتحانا لمن في قلبه خفقات الضمير الحي لأن الإنسان الحي إذا تذكر التجارب المارة استفاد منها ليجدد حياته ، ويجدد منهجه ويغير من نفسه ليغير الله ما حوله "والألم لا يذهب ضياعا إذا أدرك

---

84 - تفسير المنار: 1/ 312-313.

85 - نفسه: ص 308.

86 - ظلال القرآن 87/1.

صاحبه أنه يمر بفترة امتحان لها ما بعدها إن أحسن انتفاع بها والألم يهون على النفس حين تعيش بهذا التصور وحين تدخر ما في التجربة المؤلمة من زاد للدنيا بالخبرة والمعرفة والصبر والاحتمال ، ومن زاد للآخرة باحتسابها عند الله "[87] ، ذلك لأن "المتاعب والآلام هي التربة التي تنبت فيها بذور الرجولة وما تفتقت مواهب العظماء إلا وسط ركام من المشقات والجهود"[88].

وهذه التجارب التي مرت بها الأمم هي بمثابة مخزون تاريخي يقدمه القرآن للاعتبار والتأمل ، والأمة الذكية هي تلك التي تستفيد من تجارب آبائها وأجدادها لتعرف كيف تعيد بناء حاضرها وفق مخزون ماضيها فتتجنب ما يضرها وتعتمد ما ينفعها ، ذلك لأن تاريخ الحضارات تحكمه سنن لا تتبدل ولا تتغير ، ولكن لا يستفيد من تجارب الأمم إلا من استنبط من الحركات التاريخية العبر المفيدة ، فمن غاب عقله عن تاريخ الحضارات والشعوب ضاع وضيع ذريته من بعده .

ولعل الباقلاني كان على حق حينما لاحظ أن الآيات المتعلقة ببني إسرائيل طويلة لبلادة حسهم ، إذ يبدوا أنهم لا يستفيدون من تجاربهم أبدا.

وأخشى ما أخشاه أن تكون الأمة الإسلامية قد أصيبت بسبب طول الأمد عليها -وهي تحت الذل بسبب الاستعمار ثم السياسات العمياء التي تذل شعوبها- بهذا المرض الخبيث فتبلد حسها ومرض قلبها ومات ضميرها.

والحال أن الأمة إذا أصيبت بهذا المرض عاشت أسوأ الأحوال:{ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال ربي لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها فكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى}[89] ، فقد قال تعالى هنا:{ فإن له معيشة ضنكا} ولم يقل فإن له حياة ضنكا لأن "العيش اسم لما هو سبب الحياة من الأكل والشرب ، فليس العيش من الحياة في شيء"[90] .

---

87 - في ظلال القرآن 88/1.

88 - الغزالي: جدد حياتك ص 156

89 - د/ طه 124 -127.

90 - أبو هلال العسكري- الفروق في اللغة ص 96-

أي أن " معيشة الضنك" هي حياة ذل نجمت عن نسيان القيم التي تحيي الضمير لتعلمه الاهتمام بالنفس من حيث هي قيم أخلاقية وليس مجرد جسم متحرك ، لأن الحركة التي لا تنش الذباب على الأنف هي حركة الموتى.

وقد يفهم الناس من موقف بني إسرائيل فهما خاطئا فيؤولونه بالصبر على المكاره ويجعلون منه قيمة خلقية ، والحال أن ذلك وهم، لأنه إذا كان الصبر هو حبس النفس على ما تكره فإن ذلك تفسير حسن للصبر إذا "عنينا به مواجهة الشدائد البغيضة بثبات لا نكوص معه وعقل لا يفقد توازنه واعتداله، غير أن حبس النفس على ما تكره إذا عنينا به دوام الشعور بمرارة الواقع وطول الإحساس بما فيه من سوء وأذى قد ينتهي بالإنسان إلى حال منكرة من الكآبة والتبلد [91] .

[91] -الغزالي : جدد حياتك ص 155.